

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد،

فإن فكرة الكتابة في موضوع القرابين البشرية قد نبتت في رأسي وجالت بخاطري، إبان دراستي لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) حيث كان موضوعها "تأثير اليهودية بالأديان الوثنية القديمة"^(١).

وبينما كنت أبين مظاهر هذا التأثير^(٢)، راعني ما اطلعت عليه من أن اليهود في اندفاعهم الأهوج نحو الوثنية، وضعفهم الشديد أمام طقوسها، قد بلغ بهم تقليدهم للوثنيين، وتأثرهم بهم، أن قذفوا بأبنائهم وبناتهم أفلاذ وفلذات أكبادهم إلى نيران الآلهة الوثنية، حيث كانوا يقومون بإحراقهم، ويقدمونهم قرابين بشرية لآلهة الوثنيين من الشعوب^(٣) الذين كانوا محيطين بهم ومجاورين لهم، والذين خالطوهم واتصلوا بهم، وانصهروا فيهم، وانغمسوا في مستنقعات وثنياتهم، ومارسوا طقوسهم، وعبدوا آلهتهم.

-
- (١) رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا أغسطس ١٩٨٧م. وتم نشرها في كتاب بعنوان: تأثير اليهودية بالأديان الوثنية دار البشير للثقافة والعلوم الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- (٢) قمت ببيان مظاهر تأثير اليهودية بالأديان القديمة في تأليف الأسفار وتدوين الكتب وفي القصص الديني والأساطير وفي العقائد (راجع الباب الثالث من الرسالة المذكورة ص ٤٥١ - ٧٠٢).
- (٣) لمعرفة هؤلاء الشعوب الوثنية وأديانهم ومدى اتصال اليهود بهم وتأثرهم بوثنياتهم راجع الباب الأول والثاني من الرسالة المذكورة.

والعجيب أننى وجدت نصوص أسفارهم، تحرم عليهم تقديم هذه القرابين، وتحذرهم من ممارستها، وتتوعدهم بغضب الرب سبحانه وسخطه عليهم إن أقدموا على ارتكابها، وتبين لهم أن من يفعل ذلك يكون قد عصى الرب، ويستحق أن تنفذ فيه عقوبة القتل حيث يقوم الناس برجمه والقضاء عليه.

لكن اليهود - كما ورد في أسفارهم أيضًا - قاموا بارتكاب جريمة القرابين البشرية وخاصة في عصر الانقسام واشترك في ذلك الملوك والشعب على السواء - متأثرين في هذا الوثنيين ومقلدين لهم.

من أجل هذا فإننى بعد أن اختمرت الفكرة في ذهنى، وأردت أن أكتب عن القرابين البشرية عند اليهود، وجدت أنه لا بد أن أتحدث عنها أولاً عند الوثنيين الذين تأثروا بهم أو ببعضهم فخصصت الباب الأول لبيان نشأة ومظاهر تقديم القرابين البشرية عن الوثنيين، وجعلت الباب الثانى لدراسة القرابين البشرية والذبائح التلمودية عن اليهود.

ولما كان موضوع القرابين البشرية غير مألوف لكثير من القراء والباحثين، وجدت أنه من الضرورى أن أتحدث باختصار عن القرابين بشكل عام في مدخل الكتاب للتفريق بين القرابين البشرية وغيرها من القرابين الحيوانية والنباتية.

ففى هذا المدخل بينت معنى القربان فى اللغة، والمقصود بها ورد منه فى القرآن الكريم، ثم تحدثت عن اعتقاد الوثنيين أن الآلهة تنال وتتغذى من قربانينهم، وضربت أمثلة على ذلك بما كان يحدث فى بلاد الرافدين ومصر القديمة، ثم تحدثت عن اعتقاد اليهود أن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - ينال من قربانينهم وخاصة المحرقات منها، ويتعش من رائحة الدخان الذى يتصاعد من حرقها.

وكان لا بد لنا أن نبين كيف قضى الإسلام على هذه المعتقدات الفاسدة وأن نبرز بوضوح وإيجاز صورة الأضحية فى الإسلام.

وأما الباب الأول فهو بعنوان "نشأة القرايين البشرية ومظاهر تقديمها عند الوثنيين وموقف الإسلام منها".

ويشتمل هذا الباب على ثمانية فصول:

فى الفصل الأول تحدثت عن نشأة القرايين البشرية ومظاهر تقديمها عند الوثنيين، فتعرضت للآراء المختلفة التى بحثت فى نشأة هذه القرايين، وخاصة التى ترى أن الإنسان بدأ حياته التعبدية بتقديم القرايين البشرية، ثم بعد أن تهابت طباعه، ورقت مشاعره، استبدل بها القرايين الحيوانية والنباتية.

فبينت فساد هذه النظرة وخطأ القائلين بها، واعتمادهم فيها على نظرية التطور فى العقائد والشعائر، ثم بينت بعض المظاهر والطقوس التى كان يتم بها تقديم القرايين البشرية واختلافها باختلاف الشعوب والمناسبات.

ومن الفصل الثانى إلى الفصل السابع تحدثت عن القرايين البشرية عند الوثنيين: فى الفصل الثانى عند السومريين والبابليين وفى الثالث عند المصريين القدماء، وفى الرابع عند الهنود القدماء، وفى الخامس عند الكنعانيين والعمونيين والمؤابيين، وفى السادس عند اليونانيين والرومانيين، وفى السابع عند العرب فى الجاهلية.

وأما الفصل الثامن والأخير فقد بينت فيه موقف الإسلام من نذر وتقديم القرايين البشرية من خلال فتاوى الفقهاء من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن نذر أن ينحر نفسه، أو يذبح ابنه، مستشهداً على غلط تحريم قتل النفس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ومبيناً ارتباط هذه الفتاوى برؤيا الخليل إبراهيم ذبح ابنه إسماعيل عليها السلام، ثم نسخه الله عنه بالفداء العظيم.

وبينت التحقيق فى مسألة نسخ الحكم قبل التمكن من فعله، والحكمة فى

ذلك وكيف أن الله أمر بالذبح ولم يرد وقوعه، ومدى ارتباط ذلك بالقضاء على ظاهرة القرايين البشرية التي كانت منتشرة في عصر الخليل إبراهيم عليه السلام^(١).

وإذا كان الكتاب كما هو واضح من عنوانه ينقسم إلى قسمين:

قسم عن القرايين البشرية، وقسم عن الذبائح التلمودية.

فالقرايين البشرية مشتركة عند الوثنيين واليهود وأما الذبائح التلمودية فهي خاصة باليهود ومقصورة عليهم.

ولذلك جاء الباب الثانى بعنوان "القرايين البشرية والذبائح التلمودية عند اليهود في العهد القديم وفي عصر التلمود".

ويشتمل هذا الباب على ستة فصول:

الفصل الأول: عن العهد القديم وتحريم القرايين البشرية، حيث تحدثنا عن المراد بالعهد القديم، ومتى أطلق، واختلاف اليهود والنصارى في تقسيم وترتيب وعدد أسفاره، ثم تحدثنا عن تحريم التوراة التى بأيدي اليهود للقرايين البشرية.

والفصل الثانى: عن ارتكاب اليهود لجريمة القرايين البشرية، وتنديد أنبياء العهد القديم بهم، فتحدثت عن قيام أحد قضاتهم (يفتاح) بذبح ابنته وتقديمها قرباناً بشرياً للرب، وعن قيام ملوك وشعوب يهوذا وإسرائيل (مملكتى الجنوب والشمال) بتقديم القرايين البشرية مقلدين للوثنيين ومتأثرين بطقوسهم، وعن قيام أنبياء العهد القديم بالتنديد بهم والنعى عليهم، والتحذير لهم من غضب الرب وانتقامه لارتكابهم هذا الجرم الشنيع.

(١) كان التعرض لقصة الخليل عليه السلام ضرورياً في هذا البحث حيث أجمع الفقهاء على أن من نذر نحر نفسه أو ذبح ابنه إنما يعد ذلك معصية ينبغي الاستغفار منها والتكفير عنها، فكان لابد من الإجابة على هذا السؤال: ما هى الحكمة من أمر الله لل خليل أن يذبح ابنه رغم أن ذلك فى حق غيره يعد معصية.

وفي الفصل الثالث تحدثت عن التلمود ودوره في قيام الذبائح التلمودية من خلال ما فيه من حث اليهود على ذبح الآدميين من غيرهم واستنزاف دمائهم ومزجها بعجين فطائرهم في أعيادهم ومناسباتهم الدموية المقدسة.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن مراسم وطقوس وطرق استنزاف اليهود للدم البشرى من غيرهم في مناسباتهم الدينية والدنوية.

وفي الفصل الخامس تحدثت عن أشنع الحوادث، وأبشع الجرائم التي ارتكبتها اليهود في استنزاف دماء غيرهم من خلال أشهر ما سجله التاريخ عن الذبائح التي وقعت في الغرب والشرق وركزت على حادثتين من أشنع هذه الحوادث.

الأولى حادثة مقتل الطفل "هنرى عبد النور" سنة ١٨٩٠م وقيام حبيب فارس بتأليف كتابه "صراخ البرىء في بوق الحرية والذبائح التلمودية" ونشره عام ١٨٩١م والذي رجعت إليه ونقلت عنه تصويره لهذه الحادثة وتعليقه عليها ومتابعته لها ورصده لكثير من الذبائح التلمودية في الشرق والغرب.

والحادثة الثانية الخاصة بمقتل الأب توما وخادمه المسلم إبراهيم عمار التي وقعت في دمشق عام ١٨٤٠م والتي اتهم فيها ستة عشر شخصاً وقدموا لمحاكمة شهيرة نصوصها موجودة في سجلات المحاكم بوزارة العدل بدمشق ونقل وقائعها كاملة عدد من المؤرخين الغربيين ونقلت كثيراً من نصوصها عن كتاب شارل لوران في القسم الثانى من كتاب "الكنز المرصود في قواعد التلمود" الذى طبع سنة ١٨٩٩م بالقاهرة ثم نفذت نسخه وأصبحت في حكم المخطوط النادر حتى قامت دار القلم بدمشق بطبعه سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

وقد تضمنت هذه المحاكمة اعترافات عدد من الخاخامات وغيرهم من المتهمين عن هذه الجريمة وعن أسرار استنزاف اليهود للدم البشرى، وسيرى القارىء

كيف أن المحكمة أصدرت حكمًا بإدانة المتهمين وإعدام عدد منهم، لكن هذا الحكم حيل دون تنفيذه، وكان ذلك في عهد محمد علي باشا وسيتبين لنا دوره في ذلك.

وفي الفصل السادس تعرضت لمحاولة اليهود إنكار هذه الجرائم وإبطال هذه المحاولة وبيان مدى ثبوت هذه الجرائم عليهم من خلال آراء العلماء والباحثين، واعترافات الحاخامات والمؤرخين.

وفي نهاية الكتاب أثبت نص كتاب "إظهار سر الدم المكتوم" للحاخام ناوفيطوس الذى تحول إلى المسيحية وألف هذا الكتاب ليفضح فيه أسرار اليهود، ويهتك أستارهم، فى كشف طريقة استنزاف دماء الأطفال الجارية عندهم.

والحقيقة أن موضوع هذا الكتاب مثير للغاية. ويبعث فى نفس قارئه مزيجًا من الأحاسيس والمشاعر: ما بين دهشة وتعجب، وغضب وتألم، ورفض واستنكار، وحزن واستياء، ولا أريد فى هذه المقدمة أن أفرض على القارئ شعورًا معينًا، وإنما أدعه يقدم على قراءته مباشرة دون تدخل منى، حيث أمسكت عن إبداء مشاعرى الخاصة واكتفيت ببيان الخطوط الأساسية والمعالم العامة.

ونظرًا لجدة البحث فى هذا الموضوع من ناحية، وغرابته على القارئ وعدم إلفه له من ناحية أخرى فإننى أعتقد أنه يستوجب بعض النظر والتدقيق، ويحتاج إلى شىء من الإضافة والتنقيح، وأرجو أن يتيسر لى ذلك فى الطبعة القادمة بإذن الله، على ضوء ما يتسنى لنا الرجوع إليه، وعلى أمل الانتفاع بنصائح وتوجيهات أساتذتى العلماء، والاستفادة من آراء القراء ونقود الزملاء الباحثين.

وأحمد الله أولاً وأخيراً وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

فتحي محمد الزغبى

طنطا فى جمادى الأولى ١٤١٠هـ

ديسمبر ١٩٨٩م

obeikandi.com

المدخل

ويشتمل على:

* معنى القربان في اللغة والمقصود بما ورد منه في القرآن الكريم.

* القرابين عند اليهود.

* اعتقاد الوثنيين أن الآلهة تنال وتتغذى من قربانهم.

* اعتقاد اليهود أن الله ينال من قربانهم.

* قضاء الإسلام على معتقدات الوثنيين واليهود.

obeikandi.com

معنى القربان فى اللغة والمقصود بما ورد منه فى القرآن الكريم

معنى القربان فى اللغة:

القرايين جمع مفردة قربان وجاء فى القاموس المحيط أن القربان بالضم هو ما يتقرب به إلى الله تعالى، تقول تقرب تقربًا وتقربًا (بكسرتين) أى طلب القرية به^(١).
وورد فى لسان العرب أن القربان هو ما قرب إلى الله عز وجل وتقربت به تقول: قربت لله قربًا وتقرب إلى الله بشىء أى طلب به القرية عنده تعالى.
ونقل عن الليث قوله إن القربان هو ما قربت إلى الله تبتغى بذلك قرية ووسيلة^(٢).

ورود كلمة قربان فى القرآن الكريم والمقصود منها:

يذكر الراغب الأصفهاني أن القربان هو ما يتقرب به إلى الله وصار فى التعارف اسمًا للنسيكة التى هى الذبيحة^(٣).

وقد وردت كلمة "قربان" فى القرآن الكريم ثلاث مرات فى ثلاث آيات^(٤): ففى الآية الأولى يقول الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا

(١) القاموس المحيط طبعة الحلبي ١٩٥٢ ج ١ ص ١١٨-١١٩.

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ٥ مادة قرب طبعة دار المعارف.

(٣) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٩٩ باب القاف طبعة مصطفى الحلبي تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقي دار ومطابع الشعب وانظر أيضًا معجم ألفاظ القرآن الكريم طبع مجمع اللغة العربية - القاهرة.

فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾.

لقد بين الله سبحانه أن ابني آدم^(٢) قدما قرباناً وأن أحدهما قد تقبل منه ولم يتقبل من الآخر، دون أن يكون هناك نص صريح في سبب التنازع والخلاف بينهما ولذلك فإن للمفسرين في سبب وقوع المنازعة بين ابني آدم قولين أحدهما:

أن هابيل كان صاحب غنم، وقايل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قرباناً فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قايل شر حنطة في زرعها فجعلها قرباناً، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قايل، فعلم قايل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله.

والقول الثاني: ما روى أن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر، فولد له قايل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قايل أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجه من هابيل، فأبى قايل ذلك وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما: قرباً قربانا فأيكما قبل قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قايل حسداً له^(٣).

ونقل ابن كثير القول الأول عن ابن عباس رضي الله عنهما وبين أنه يقتضي أن

(١) المائدة: ٢٧.

(٢) سنن ترمذي بإذن الله وعونه لقصة ابني آدم بحثاً خاصاً بها حول ورودها في سفر التكوين وبيان القول الحق فيها من القرآن الكريم.

(٣) راجع تفسير الفخر الرازي المسمى بمفاتيح الغيب جـ ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي بيروت.

تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارئ في امرأة كما تقدم، وهو ظاهر القرآن (إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك. قال إنما يتقبل الله من المتقين)، فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه^(١).

ثم إن المشهور - كما يقول ابن كثير أيضًا - عند الجمهور أن الذى قرب الشاة هو هابيل وأن الذى قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هابيل شاته حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذى فدى به الذبيح وهو مناسب والله أعلم ولم يتقبل من قابيل، كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضًا، ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذى قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه وهذا خلاف المشهور ولعله لم يحفظ عنه جيدًا والله أعلم^(٢).

وفي الآية الثانية يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٣).

في هذه الآية يبين الله تبارك وتعالى أن الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة أى اتخذوهم شفعاء متقربا بهم إلى الله حيث قالوا (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) هؤلاء الذين فعلوا ذلك وأهلكهم الله هلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين عبدوهم واتخذوهم من دون الله آلهة وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم بل ضلوا عنهم أى غابوا عن نصرتهم وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع.

ثم قال تعالى (وذلك إفكهم) أى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياهم آلهة وثمره شركهم وافترائهم على الله الكذب ثم

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٤٣ دار التراث - القاهرة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأحقاف: ٢٨.

قال (وما كانوا يفترون) والتقدير وذلك إفكهم وافتراؤهم في إثبات الشركاء لله تعالى^(١).

وفي الآية الثالثة يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

يذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في بعض اليهود حين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: أتزعم أن الله أرسلك إلينا وأنه أنزل علينا كتاباً عهد إلينا فيه ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك^(٣).

يذكر الطبري أنهم قالوا "حتى يأتينا بقربان تأكله النار" لأن أكل النار ما قربه أحدهم لله في ذلك الزمان كان دليلاً على قبول الله منه ما قرب له، ودلالة على صدق المقرب فيما ادعى أنه محق فيما نازع أو قال^(٤)، ونقل عن بعض الآثار أن الرجل كان إذا تصدق بصدقة فتقبلت منه، بعث الله ناراً من السماء فنزلت على قربان فأكلته^(٥).

وقد رد المفسرون على هذا الادعاء الوارد في الآية الكريمة من اليهود بقولين:

الأول: أن ما ورد في التوراة كان "من جاءكم يزعم أنه نبي فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار إلا المسيح ومحمدًا عليهما السلام، فإنهما إذا أتيا فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان تأكله النار"^(٦).

(١) راجع تفسير الفخر الرازي جـ ٢٨ ص ٣٠ وتفسير أبي السعود جـ ٨ ص ٨٧ نشر دار المصحف بالأزهر - القاهرة.

(٢) آل عمران: ١٨٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي جـ ٩ ص ١٢١ تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٢٩٥ نشر دار الكتاب العربي نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٦٧ م.

(٤) تفسير الطبري جـ ٧ ص ٤٤٨ نشر دار المعارف تحقيق وتعليق محمود محمد شاكر الطبعة الثانية.

(٥) المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٤٩ تفسير الفخر الرازي جـ ٩ ص ١٢١ تفسير الألوسي جـ ٤ ص ١٤٤ نشر دار التراث بالقاهرة.

(٦) تفسير القرطبي جـ ٤ ص ٤٩٥ التفسير الكبير جـ ٩ ص ١٢١.

الثانى: أنه قيل إن أمر القرابين كان ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى بن مريم، فقد بقيت قائمة إلى مبعثه فلما بعث ارتفعت وزالت^(١).

ورد الله عليهم فقال تعالى لنبيه ﷺ [قل يا أيها النبى للقائلين: إن الله عهد إلينا] ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات، يعنى: بالحجج الدالة على صدق نبوتهم وحقيقة قولهم = وبالذى قلتهم "يعنى: وبالذى ادعيتهم أنه إذا جاء به لزمكم تصديقه والإقرار بنبوته، من أكل النار قربانه إذا قرب لله دلالة على صدقه = فلم قتلتموهم وأنتم مقرون بأن الذى جاءوكم به من ذلك كان حجة لهم عليكم = "إن كنتم صادقين، فى أن الله عهد إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رسله بقربان تأكله النار حجة له على نبوته"^(٢).

وبذلك فقد ظهر سقوط شبهة الطاعنين فى نبوته ﷺ والذى يقولون فيها إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وأنت يا محمد ما فعلت ذلك فوجب أن لا تكون من الأنبياء، وثبت أن هذا القول دعوى من اليهود، إذ كان ثم استثناء فأخفوه، أو نسخ، فكانوا فى تمسكهم بذلك متعتين، ومعجزات النبى ﷺ دليل قاطع فى إبطال دعواهم وكذلك معجزات عيسى، ومن وجب صدقه وجب تصديقه^(٣).

وإذ كان المفسرون قد ذكروا أن اليهود فى قولهم "ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار" إنها أرادوا شيئاً كان شائعاً عندهم، وهو أن يذبح القرбан من النعم أو غيرها فيوضع فى مكان معين فتأتى نار بيضاء من السماء لها دوى فتأخذه أو تحرقه، إذا كانوا قد ذكروا ذلك فإن الشيخ محمد رشيد رضا يرى أن هذا من الإسرائيليات وأن اليهود كانوا يلقون إلى المسلمين أخباراً من خرافاتهم أو

(١) المصدران السابقان.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٤٤٩ روح المعانى جـ ٤ ص ١٤٤.

(٣) راجع تفصيل ذلك فى التفسير الكبير جـ ٩ ص ١٢٠ - ١٢٣ وتفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٩٦.

مخترعاتهم ليودعوها كتبهم ويمزجوها بدينهم، وأنهم كانوا يوقدون النار بأيديهم ويحرقون بها المحرقات^(١).

وينقل عن الإمام محمد عبده تعليقه على ما قاله المفسرون بقوله: ويجوز وهو الأظهر أن يكون معنى (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) أن يفرض علينا تقريب قربان يحرق بالنار فقد كان من أحكام الشريعة عندهم أن يحرقوا بعض القربان، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم فقال (قل قد جاءكم في زعمكم أنكم لا تؤمنون بى لأنى لم آمر بإحراق القرابين، أى إنكم لم ترضوا بعصيان أولئك الرسل فقط بل قسوتهم عليهم وقتلتهم^(٢)).

وهذا يقتضينا أن نشير إلى القرابين عند اليهود ونتعرف عليها من خلال أسفارهم.

(١) راجع تفسير المنار جـ ٤ ص ٢١٨-٢١٩ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٩-٢٢٠.

القرايين عند اليهود

جاء في قاموس الكتاب المقدس أن القربان كان جزءًا هامًا من عبادة العبرانيين بل إنه رافق عبادتهم منذ نشأتها وأن أول عبادة ذكرت في التوراة كانت بالقرايين وهى عبادة قابيل وهايل^(١).

ويذكر زكى شنوده أن تقديم القرايين كان طقسًا رئيسًا في عبادة اليهود فكانوا يقدمونها لله تعبيرًا عن اعترافهم بخطاياهم، أو تكفيرهم عنها، أو توبتهم عن ارتكابها، أو شكرهم لله، أو تكريس أنفسهم لخدمته، أو غير ذلك من الأسباب والأغراض^(٢).

وقد ورد في بعض الأسفار الخمسة نظام مفصل لتقديم القرايين، وقصر اليهود تقديمها على الكهنة وحدهم ويعاونهم اللاويون في بعض الأمور^(٣).

وكانت قرايئتهم تشمل المحرقات والذبائح والرفائع والعشور والندور، وكانوا

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٧٢١ تأليف نخبة من الأساتذة ذوى الاختصاص ومن اللاهوتيين بإشراف الدكتور بطرس عبد الملك وآخرين منشورات مكتبة المشعل في بيروت ١٩٨١ م.

(٢) المجتمع اليهودى ص ١٨٥ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٣) راجع أسفار الخروج، اللاويين، العدد، التثنية، والفرق بين الكهنة واللاويين أن الكهنة كانوا من نسل هارون فقط، وأما اللاويون فهم من نسل أو سبط لاوى بن يعقوب والذى منه موسى وهارون وكان اللاويون متوسطين بين الكهنة وسائر الشعب فلم يكن يجوز لهم كالكهنة أن يقدموا الذبائح وإنما كانوا مختصين بمساعدتهم في الخدمة الدينية.

راجع تفاصيل ذلك في قاموس الكتاب المقدس ص ٧٩١ - ٧٩٤، ٨٠٦ - ٨٠٨ المجتمع اليهودى ص ١٢٧ - ١٦١.

يقدمونها من الحيوانات المستأنسة الطاهرة ومن الحبوب كالقمح والشعير، ومن بعض السوائل النباتية كالزيت والخمر^(١).

وكان من الذبائح نوع يقدم كله إلى الله، ونوع آخر يخصص قسم منه لله، والقسم الآخر للكهنة وحدهم، أو بالاشتراك مع العابدين الذين يقدمونها.

فكان النوع الأول الذى يقدم كله لله هو المحرقات جاء فى سفر اللاويين:

إذا قرب إنسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرايئكم إن كان قربانه محرقة من البقر... وإن كان قربانه من الغنم..... ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقة وقود رائحة سرور للرب^(٢).

وكان الشحم من كل الذبائح يقدم لله، جاء فى سفر اللاويين "ويقرب من ذبيحة السلامة وقوداً للرب الشحم الذى يغشى الأحشاء وسائر الشحم الذى على الأحشاء والكليتين والشحم الذى عليهما الذى على الخاصرتين.

ويوقد بنو هارون على المحرقة التى فوق الحطب الذى على النار وقود رائحة سرور للرب^(٣).

وكان النوع الثانى هو الذبائح التى يقدمها الشعب احتفالاً بالعيد، كذبيحة السلامة، إذ كان الكاهن يأخذ منها الصدر فيرده أمام الله، والساق اليمنى التى يسمونها ساق الرفيعة، وأما الذى يتبقى من الذبيحة فيأخذه أصحابها الذين قدموها^(٤).

هذا وقد قضت شريعة اليهود بتقديم القرابين بأنواعها المختلفة، لتذكير اليهود بخطاياهم، وللتكفير عنها إرضاء لقداسة الله التى ترفض الخطيئة، ولكن اليهود

(١) راجع المجتمع اليهودى ص ١٨٥ - ١٨٦ قاموس الكتاب المقدس ص ٧٢١.

(٢) راجع سفر اللاويين: الاصحاحات الثلاثة الأولى الخاصة بالمحرقات من القرابين الحيوانية والنباتية.

(٣) اللاويين ٣: ٣ - ٥.

(٤) المجتمع اليهودى ص ١٨٨.

اتخذوها على العكس مبررًا لارتكاب الخطايا، ما داموا يستطيعون بالقرايين التكفير عنها واجتناب القصاص الذى تستوجهه، ناظرين إلى هذه الطقوس من ناحيتها الشكلية فحسب، معتقدين أن مجرد القيام بها يغنى عن الحكمة المقصودة من ورائها، ومن ثم أهملوا كل الواجبات الروحية والأدبية والإنسانية التى هى جوهر الدين^(١).

وحينما أخذ الكهنة وعامة الناس ينظرون إلى القرايين من الناحية الطقسية فقط ويظنون أن الدين مجرد طقوس، قام الأنبياء المذكورون فى العهد القديم ينددون بهذا النقص^(٢) من أمثال صموئيل وأشعيا وهوشع وعاموس.

فهذا صموئيل يقول: لشاول الملك: هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب، هو ذا الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من شحم الكباش!! لأن التمرد كخطية العرافة والعناد كالوثن والترفيم^(٣)، لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك^(٤).

ويقول أشعيا "لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب. أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات. وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر،..... لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لى،..... لست أطيق الإثم والاعتكاف. رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى، صارت على ثقلًا، مللت حملها، فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثرت الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دمًا، اغتسلوا تنقوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني كفوا عن

(١) زكى شنوده: المجتمع اليهودى ص ١٩٩.

(٢) راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٧٢٣.

(٣) تطلق الترافيم على أصنام أو آلهة البيت وتكون صغيرة جدًا لسهولة حملها فى الهروب بسرعة ويمكن إخفاؤها، راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٤) صموئيل الأول ١٥: ٢٢ - ٢٣.

فعل الشر، تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة^(١).

ويقول هوشع "إنى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات" ويقصد هوشع - كما يقول متى هنرى - بالرحمة الصلاح والتقوى والطهارة فهى تمثل كل التدين العملى^(٢).

وجاء فى سفر عاموس "بغضت كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع، وليجر الحق كال مياه والبر كنهر دائم^(٣).

فقد تحدث عاموس فى سفره كثيرًا عن أعياد اليهود ومحافلهم المقدسة وعن المحرقات والتقدمات وذبائح السلامة والأغاني ونغم الرباب ورأى عاموس تدينًا كثيرًا فى كل مكان ذهب إليه، بينما التجار يستعملون موازين الغش فى الأسواق، والقضاة يأخذون الرشوة وأصحاب الأراضى يتقسمون على حساب العمال، وقد انتزعت المحبة والرحمة تمامًا، ولأجل ذلك كانت ديانتهم باطلة بل كانت تمردًا وعصيانًا ضد الله^(٤).

وهكذا كان اليهود يجعلون للطقوس الدينية - والقرايين بشكل خاص - الأهمية الأولى فى عبادتهم لله، مكتفين بناحيتهما الشكلية، مع أن المقصود منها - فيما يقول زكى شنوده - أن تكون مجرد رموز أو مظاهر للعبادة الحقيقية، التى فى جوهرها اتجاه الروح نحو الله وحبها له، وخضوعها لمشيئته، ونزوعها إلى عفوه وغفرانه وتطلعها إلى درجة من الطهارة والقداسة تتيح لها أن تكون مستحقة لأن تقترب منه وتنال رضاه.

(١) أشعياء ١: ١١ - ١٧.

(٢) تفسير هوشع ص ١٦٦ دار الثقافة ١٩٨٠ م.

(٣) عاموس ٥: ٢١ - ٢٤.

(٤) القس عاموس عبد المسيح دراسة فى عاموس ص ١١٩ - ١٢١ - نشر دار الثقافة ١٩٧٩ م.

ولكن اليهود قنعوا بالمظهر دون الجوهر، لأنهم اعتقدوا أن استيفاء المظهر كاف لتبرير خطاياهم وإعفائهم من عواقب آثامهم، وقد كانت الخطايا والآثام عزيزة عليهم بحيث كانوا عاجزين عن اجتنبها أو التخلي عنها، ولو أدى بهم ذلك إلى إغضاب ربهم، بل وإلى تجنبهم إياه وتخليهم عن عبادته، ولهذا السبب كانوا في كل أطوار تاريخهم لا يعبدون الله وإنما يعبدون الأصنام^(١).

(١) المجتمع اليهودي ص ٢١٦. ولمعرفة الاتجاه الوثني عند اليهود ومدى تأثيرهم بالوثنيين في عقائدهم وعباداتهم راجع رسالتي للدكتوراه "تأثر اليهودية بالأديان القديمة" فهي تحتوى على اتصال اليهود بالشعوب الوثنية، وعوامل تأثيرهم بالوثنية، ومظاهر هذا التأثير المتمثلة في العقائد والقصص الديني والأساطير، وتدوين الكتب وتأليف الأسفار.

اعتقاد الوثنيين أن الآلهة تنال وتتغذى من قربانينهم

هذا، وقد كان يعتقد قديمًا أن الآلهة المتقرب إليهم يستفيدون ماديًا من الضحايا والقرايين، حيث ساد الاعتقاد عند بعض الأمم أن الآلهة تستمتع في غذائها بلحوم الأضاحي أو بلحوم بعض أعضائها.

ولذلك يحرم عند هذه الأمم أكل الناس منها جميعًا أو بعضها، واعتقد بعض الشعوب التي كانت تقدم الضحايا الإنسانية والقرايين البشرية قربانًا للآلهة والموتى أن المتقرب إليهم يتخذون من هذه الضحايا وتلك القرايين عبيدًا وخدمًا لهم يسخرونها في قضاء حاجاتهم.

ووصمت بعض الأمم آلهتها بصفات القسوة وحب الدماء والتلذذ بمنظر إزهاق الروح. فكانوا يقدمون إليها الضحايا أو القرايين تهدئة لهذه الميول وإتقاء لشرها وتأمينًا على حياة الجماعات، كما يقدم صاحب القطيع بعض أفراد قطيعه للسبع لينجو هو ببقية أفراد القطيع^(١).

ففى بلاد الرافدين قديمًا نجد أن كثيرًا من الآلهة كانت تسكن المعابد في سومر حيث يقرب لها الوثنيون القرايين من مال وطعام وأزواج، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التي تتراح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها، ومنها الثيران، والمعز، والضأن،

(١) راجع د/ على عبد الواحد وافي غرائب النظم والتقاليد والعادات ص ٨٠ دار نهضة مصر للطباعة والنشر للطباعة، بحوث في الإسلام والاجتماع ص ١٢٠ دار نهضة مصر.

واليمام، والدجاج، والبط، والسمك، والبلح، والتين، والخيار، والزبد، والزيت، والكعك.

ويستدل ول ديورانت من هذا الثبت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يتمتعون بالكثير من أصناف الطعام وأن الكهنة قد أثروا ثراء ضخماً من هذه القرايين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة في المدن السومرية، وحتى كانوا هم الحكام المتصرفين في كل الشؤون^(١).

ويذكر موسكاتي أن طقوس أرض الرافدين كانت بالغة التعقيد، حيث كانت تشمل على تفصيلات محددة في صرامة ودقة، وأن تقديم القرايين كان أشيع هذه الطقوس الدينية وأغلبها في الاستعمال.

ويذكر أن القرايين كانت تقدم في الغالب من الحيوانات والسوائل وكان الحمل والجدى أكثر الحيوانات استعمالاً في هذا الصدد، وكان النبيذ والجمعة واللبن والعسل والزيت أكثر السوائل استعمالاً، وكان القربان من الأضاحي أو غيرها يوضع على مذبح أمام تمثال الإله أو الآلهة، ويبدأ الحفل الديني بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدس، وكان أجزاء معينة من القرايين، مخصصة للإله أو الآلهة تحرق (أو تسكب) تكريماً له أو لها، وكانت أجزاء أخرى تؤول إلى الكهنة^(٢).

وكانت تقدم للتماثيل الإلهية - عند البابليين - وجبتان من الطعام كل يوم في معبد أورك، تقدم الوجبة الأولى الرئيسة في الصباح عند فتح المعبد، وتقدم الوجبة الثانية في المساء، واشتملت كل وجبة على وجبتين من الطعام هما "الرئيسة" و"الثانوية" ويبدو أنهما اختلفتا بالكميات المقدمة وليس بمحتوياتهما.

(١) راجع الشرق الأدنى ص ٢٩ الجزء الثاني من المجلد الأول من قصة الحضارة ترجمة محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٧١ م.

(٢) راجع سبتيوموسكاتي. الحضارات السامية القديمة ص ٨٠ - ٨١ ترجمة د/ السيد يعقوب بكر نشر دار الرقي بيروت ١٩٨٦ م.

وتظهر رسمية وطبيعة وعدد أواني وجبة الإله التى اتصفت بها تماثيل آلهة بلاد ما بين النهرين نفس قدرات الإنسان^(١).

وكانت توضع منضدة أمام تماثيل الإله، ويقدم ماء الغسيل فى إناء، وتوضع عدد من الأواني على المنضدة بترتيب وهى تحتوى على سائل وشبه سائل، إضافة إلى وضع أوان تحتوى على شراب، وتقدم شرائح اللحم كوجبة رئيسة. ثم تجلب الفاكهة إلى الداخل، ثم يتم حرق البخور لتشتت رائحة الطعام، وعند الانتهاء من وجبة الطعام الرئيسية تنظف المائدة وترفع من الغرفة ويقدم ماء موضوع فى إناء إلى تماثيل الإله لتنظيف الأصابع^(٢).

وبالتطلع إلى القربان من وجهة النظر الدينية - كما يقول ليوا وينهايم - يكون هناك اقتراب نحو مركز نقطة خطيرة أخرى فى ذلك النظام المتداول و اقتراب نحو استهلاك وجبة الطعام القربانية من قبل الإله، و اقتراب نحو الاعتقاد الدينى لتلك التقديرات للمادة التى قدمت لذلك المصدر ذى القوة والسلطة التى اعتقد بأن الإله بحاجة إليها^(٣).

ولقد تطور نمط طقوسى متميز فى بلاد ما بين النهرين لكى يوضح الطبيعة الخفية لعملية تمثيل الطعام من قبل تماثيل الإله، حيث كانت تحاط المائدة التى يوضع عليها الطعام، وكذلك يحاط تماثيل الإله بستائر من الكتان ترفع فى الوقت الذى يفترض فيه أن يأكل الإله ما كان يقدم إليه، وترفع الستائر بعد انتهاء الوجبة ثم تسحب مرة أخرى عندما يغسل الإله أصابعه - وكان أى اتصال بين العالم المادى وعالم الإله مخفياً عن عيون البشر^(٤).

(١) راجع ليوا وينهايم: بلاد ما بين النهرين ص ٢٣٥ ترجمة سعدى فيضى عبد الرازق دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦ م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٠.

وكان تقريب القربان في بابل من الطقوس المعقدة التي تتطلب خدمات كاهن خبير بشؤونها، وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل، وكل لفظ يقال، فإذا أقدم على هذا العمل شخص هاوٍ غير أخصائي فيه، ثم حاد قيد شعرة عن المراسم المقررة، فقد يكون معنى هذا أن تأكل الآلهة الطعام ولا تصغى للدعاء^(١).

وفي مصر القديمة كانوا يحتفلون بتقديم القرابين: فوجبة الصباح التي تقدم للإله كانت تعد في وقتها المحدد فترى الخدم ينطلقون في المجاز إلى جانب القدس وبأيديهم صحاف رصت عليها ألوان الزهر والفاكهة، وفوق رؤوسهم المرتفعة في اتزان دقيق أحمال ثقيلة من الخبز أو اللحوم التي يشتهيها الإله، وجرار الجعة أو النبيذ التي سوف تروى ظمأه.

ويمضي ذلك الموكب متقدماً إلى القدس يقوده كاهن يرتل بعض الأناشيد وتفتح أبوابه واحداً بعد الآخر، وعند تقديم الطعام إلى رب المعبد ترتفع الأصوات داعية إياه أن يتقبلها.

وحين يبلغ الموكب رحبة المذبح التي تتوسط المعبد بالقرب من قدس الأقداس، يتوقف هذا المسير فيضع الخدم الصحاف على الموائد والمذابح، وينزلون جرار الشراب على حوامل تبلغ في ارتفاعها النصف الأسفل من أجسادهم النحيفة ناثرين بين القرابين المتنوعة ألواناً من الزهر والنبات الغض.

وينسحب حاملو القرابين، فيأخذ الكهنة في تطهيرها يرشونها بالماء، ويحرقون من حولها البخور^(٢).

وتظل القرابين موضوعة فوق المذابح إلى أن يرضى الإله فيقبل الاستمتاع بها، وهنا يجيء الكاهن فيرفع صحيفة الأمس الموضوعة في القدس، ثم يمضي ليملاؤها من قاعة المذبح بالخبز والفطائر الحلوة الطازجة.

(١) ول ديورانت الشرق الأدنى ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) سيرج سونيرون: كهان مصر القديمة ص ٨٨ ترجمة زينب الكردي مراجعة د/ أحمد بدوي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م.

وكانت تلك المجموعة الرمزية فقط هى التى تقرب من الإله لتمثل مجموعة اللحوم والحلوى والخضر والفاكهة التى تغص بها الموائد^(١).

وحين يخال القوم - بعد وقت محدد - أن الإله قد شبع وشبعت معه أرباب أخرى من بلاطه فى معبده، توضع القرابين على المذابح أمام تماثيل ذوى المقامات العلامن حظوا بشرف إقامة تماثيلهم داخل النطاق المقدس، ثم ترد بعدئذ إلى المعامل حيث توزع طبقاً لنظام محدد بين مختلف كهان المعبد.

وهكذا كان يعيش السدنة الدينيون من تلك القرابين المخصصة للإله مستمتعين بحقيقتها المادية بعد ما شبعت روح الإله وأرواح الموتى فى زعمهم بجوهرها الروحي^(٢).

ويذكر ول ديورانت أن الكهنة فى مصر القديمة كانوا يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التى كانت تقدم للآلهة، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيرادات طيان الهياكل، ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية، وقد تطلب الدين المصرى الكثير التعقيد أن تقوم عليه طبقة بارعة فى فنون السحر والطقوس الدينية لا يمكن الاستغناء عن قدرتها وبراعتها فى الوصول إلى الآلهة، ومن ثم أصبحت طبقة الكهنة على مر الزمن أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء الإقطاع ومن الأسرة المالكة نفسها^(٣).

(١) المصدر السابق ص ٩١ - ٩٢.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

(٣) الشرق الأدنى ص ١٦١.

اعتقاد اليهود أن الله ينال من قرابينهم

وإذا كان الكهنة قد تمكنوا من خداع الناس في هذه الديانات الوثنية حتى أوهموهم بأن الآلهة تأكل وتشرب وتحتاج إلى طعام وشراب ولا بد من إمدادها بالغذاء بشكل مطرد ومنظم، ثم تفرغ هذه الأطعمة الكثيرة وتلك الأشربة المتنوعة التي أشرنا إليها آنفاً في بطون هؤلاء الكهنة الدجالين.

إذا كان هذا قد تم في الديانات الوثنية فإنه أيضاً قد وقع من اليهود في الفترات التي كانوا يجاورون فيها الوثنيين ويتأثرون بوثنتهم ويارسون طقوسهم، وتغلب عليهم طبيعتهم المادية ويسود لديهم اتجاههم الوثني المنبعث من تكوينهم الداخلي وبما جبلوا عليه من ميل إلى الشرك والوثنيات وضعفهم أمام الشعوب الوثنية وسرعة تأثرهم بهم وسهولة تقليدهم.

فالقرايين والضحايا كما وردت أحكامها في كتب التوراة والتلمود - فيما يذكر الأستاذ العقاد - تحمل في أطوارها كل بقايا التضحية للأرباب، في الأديان التي قامت على عبادة الظواهر الطبيعية، ولا سيما ظواهر الفصول ومواسم الزراعة، فالقربان عندهم يكون تارة من بواكير الزرع وتارة من بواكير الحيوان في مواسم الحصاد أو التناج^(١).

(١) راجع عباس محمود العقاد: الضحية في مقارنة الأديان بحث منشور بمجلة منبر الإسلام ص ١٥ عدد ذى الحجة ١٨٣٢هـ / مايو ١٩٦٣م.

بل يكون القربان الأكبر أحياناً طعاماً مقدماً إلى الإله لأنه يستسيغه ويشعر بالسرور لاشتغاله، ويكون في كل حال هدية منتقاة من أطايب الذبيحة لكهان الهيكل وخدامه والمنتسبين إليه^(١).

فتوارتهم المزعومة تنص على أن الضحايا "المحرقة" (وهي التي تحرق أجزاؤها في المذبح تحت إشراف الكهنة ومعهم اللاويون) (وقد سبق أن تحدثنا عنهم)، يرتاح لها الإله ويفيد منها ويتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها، وإنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت إليه في صورة غير الصورة في شريعتهم، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين فيرسل عليهم ناراً تحرقهم، كما فعل مع ولدين من أولاد هارون لم يحسنا تقديم الأضحية إليه.

ومن ثم كانت طريقة حرق الأضحية وتصاعد دخانها هي الطريقة المقررة لديهم في معظم أنواع الأضحية والقرايين، حتى في قرايين النبات وما يصنع منه كالفطائر وما إليها^(٢).

ويرى لبوا وينهايم أن حرق القرايين كان بهدف تبديلها من ناحية واحدة - ناحية الوجود المادى - إلى أخرى التي أصبح الطعام فيها قابلاً للامتصاص من قبل الإله عن طريق رائحته^(٣).

ويذكر العقاد أن سفر اللاويين الذى خصوه بمراسم الهيكل والذبائح وحقوق الأخبار والكهان حافل بالتفصيلات التى تعرض لبيان أغراض القربان وأجزاء الذبيحة التى يرتضيها الرب ومقادير اللحم والشحم التى تفضل

(١) المصدر السابق.

(٢) د/ على عبد الواحد وافي: اليهودية واليهود ص ٣٩ دار نهضة مصر للطباعة والنشر الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص ٣٠ - ٣١ دار نهضة مصر.

(٣) بلاد ما بين النهرين ص ٢٤٠.

على غيرها ولا تحل لأحد غير الكهنة أو غير الإله يتوسط الكهنة في تقديمها إليه^(١).

ويرى أن معنى القربان - البدائي والوثني - ظاهر من هذه المراسم وهذه الخصائص التي ترتبط بالكهانة وبقايا الوثنية^(٢).

(١) هذا ويطلق الكاهن في اصطلاح الكتاب المقدس على الشخص المخصص لتقديم الذبائح وكان من أهم واجبات الكهنة تقديم القرابين والذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية والخدمة في الاحتفالات الدينية والتطهر، والعناية بالآنية المقدسة والنار المقدسة، والمنازة الذهبية، وغيرها - وكانوا - حسب ما ورد في شريعة الأسفار الخمسة - يستولون على عشر الأعشار المقررة للقرابين، ولهم فداء الأبقار والرفائع، وباكورات المحصولات، وجزء من غنيمة الحرب، وخبز الوجوه ولحم التقدّمات المقدمة أثناء خدمتهم في الهيكل، وبالرغم من كل الامتيازات التي قررتها الشريعة لهم لم يلبثوا أن أهملوا واجباتهم الكهنوتية، بل لم يلبثوا أن انحرفوا عن الأخلاق القويمة والصفات الكريمة التي ينبغي أن يتحلوا بها، فضربوا أسوأ الأمثال للشعب متخذين من مهمتهم سبيلاً إلى إشباع جشعهم وطمعهم وإرضاء شهواتهم الجسدية ونزواتهم البهيمية بعد أن أصبحت لهم ثروات عظيمة من وراء كل الامتيازات المعطاة لهم والمنافع المخصصة لطائفتهم بل لقد تركوا الله وعبدوا الأصنام جاعلين من أنفسهم كهنة لها، راجع قاموس الكتاب المقدس ص ٧٩١ - ٧٩٥ زكى شنوده: المجتمع اليهودي ص ١٣٨ - ١٥٥.

(٢) الضحية في مقارنة الأديان ص ١٥ - ١٦.

قضاء الإسلام على معتقدات الوثنيين واليهود

وحينما جاء الإسلام قضى على جميع هذه الأساطير وتلك الخرافات التى أشرنا إليها والتى شاعت عند الوثنيين، ففضى على جميع مظاهر الانحراف فى نظام الأضحية والقرايين وما التصق به من عقائد فى الملل والنحل السابقة له وبخاصة عند اليهود والعرب فى الجاهلية.

فقد جعل الإسلام الأضحية مجرد مظهر من مظاهر تقوى الله وامتنال أوامره وشكره على نعمائه التى أسبغها على عباده، وبخاصة على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وفرصة للإحسان والتوسعة والبر بالفقراء والمساكين.

وفى هذا يقول الله تعالى مبيناً بعض مناسك الحج وما ينحر فيها من ضحايا ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾﴾^(١).

ويقرر الإسلام أن الله تعالى لا يناله شىء من لحوم الأضاحى ولا من دمائها فيقول سبحانه ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ

(١) الحج: ٢٧-٢٨.

يَنَالُهُ الْقَوَىٰ مِنْكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُمْ ۚ وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾.

وفي هذا رد صريح على ما كان يزعمه اليهود وغيرهم من الوثنيين من أن الرب أو الإله يفيد من الضحايا لحومها ودمائها ويتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها وأنه لذلك لا يصح أن يأكل الناس منها حتى تكون خالصة له (٢).

فإذا ما قورنت مراسم التضحية اليهودية وطقوسها بما يقابلها من مناسك التضحية الإسلامية تبين منها كل ما هنالك من الفوارق الشاسعة بين صفة القربان ومعناه في الديانتين.

فليس القربان في الإسلام ثمنًا للغفران متعلقًا بواسطة الهيكل وكهانه وليس القربان الإسلامي طعامًا للرب ولا طعامًا لأحد من الوسطاء بين العبد وربّه باسم الدين (٣).

وليس في التضحية الإسلامية معنى من معانى التقريب للظواهر الطبيعية في مواسمها المعروفة للحصاد أو للنتاج.

وآيات القرآن الكريم الواردة في هذا الشأن صريحة في بيان أغراض التقريب ومراسمه وتنزيه الإله عن النيل منه طعامًا أو شميمًا يرتاح إليه سبحانه وتعالى (٤).

(١) الحج: ٣٦-٣٧.

(٢) د/ على عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والاجتماع ص ١٣٠ اليهودية واليهود ص ٣٩-٤٠ الأسفار المقدسة ص ٣١.

(٣) يذكر العقاد أن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها في أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها أو بالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البيئة التي يرمى بها استقلال الفرد في مسائل الضمير رعاية تتحقق لها في نظام حياة، فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف لضمير الإنسان وحده لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقرب كهانه (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٠١ دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٤) الضحية في مقارنة الأديان ص ١٦.

يذكر ابن كثير أن الله تعالى يقول إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنه تعالى هو الغني عما سواه وقد كان العرب في جاهليتهم إذا ذبحوا لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها)، ونقل عن ابن جريج قوله إن أهل الجاهلية كانوا ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب رسول الله ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى يتقبل ذلك ويجزى عليه كما جاء في الصحيح "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^(١).

ويقول الفخر الرازى "لما كانت عادة أهل الجاهلية على ما روى في القرابين أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم).

فبين أن الذى يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدى من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم، ومعلوم أن شيئاً من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب).

وارتضى الرازى ما استدل به المعتزلة من هذه الآية على أن الذى ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذى ينتفع بنحره وأنه سبحانه غنى عن كل ذلك، وإنما المراد أن يجتهد العبد فى امتثال أوامره^(٢).

فالقربان الإسلامى أو التضحية فى الإسلام بعيدة غاية البعد عن مراسم الوثنية وشعائر الكهانة، وليس على المسلم أن يقربها إلى الله ثمناً للغفران ولكنه

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٣ ص ٣٧.

شكر الله وإحسان إلى الجياع والمحرمين وبرهان على التقوى والصلاح وهما كل ما يطلبه الإله من عبده تنزهه سبحانه وتعالى أن يطلبه سرورًا برأئحته أو فرحًا بمنظر الذبائح في دمائها واستثارة بالطيبات منها لمن يدعون الوساطة عنده والشفاعة لديه^(١).

وليس في الإسلام إلا طريقة واحدة للأضحية وتقديمها، وهى ذبحها ذبحًا شرعيًا وذكر اسم الله عليها، ثم التصديق بها أو بمعظمها أو ببعضها على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة^(٢).

وأحل للمضحى أن يأكل من كثير من أنواع الأضاحى بل حث على ذلك ورغب فيه، وحرم الإسلام تحريمًا باتًا جميع الطرق الأخرى التى كانت متبعة عند اليهود والنحل الأخرى من قبله كالحرق والخنق وغيرهما^(٣).

قال تعالى "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به والمنخنقة"^(٤) والموقوذة^(٥) والمتردية^(٦) والنطيحة^(٧) وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب"^(٨).

(١) الضحية في مقارنة الأديان ص ١٦.

(٢) راجع الحديث عن الأضحية في الإسلام في كتب الفقه مثل المغنى لابن قدامة والمحل لابن حزم وبداية المجتهد لابن رشد وغيرهما من كتب المذاهب وراجع أيضًا كتب التفسير فى الآيات الواردة بشأنها كتفسير القرطبي وأحكام القرآن لابن العربى.

(٣) د/ على عبد الواحد وافى: بحوث فى الإسلام والاجتماع ص ١٣١.

(٤) المنخنقة هى التى تموت خنقًا، وهو حبس النفس سواء فعل بها ذلك آدمى أو اتفق لها ذلك فى جبل أو بين عودين ونحوه.

(٥) الموقوذة هى التى ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية.

(٦) المتردية هى التى تتردى من العلو إلى السفلى فتموت قبل أن تذكى أو فى بئر ونحوه.

(٧) النطيحة هى الشاة التى تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت قبل أن تذكى.

(٨) المائدة: ٣ راجع تفاصيل الأحكام الواردة فى هذه الآية ومذاهب العلماء فى تفسيرها فى كتب الفقه

والأحكام وكتب التفسير كتفسير القرطبي ج ٦ ص ٤٨ وما بعدها وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦ وما بعدها.

وقد حرم الله من الذبائح ما أهل لغير الله به وما ذبح على النصب لأن الله سبحانه أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم فمتى عدل بها عن ذلك وذكر اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع^(١).

ولذلك فإن الإسلام يقرر أن الله وحده هو الذى يتقرب إليه المؤمن بأصحيته ففضى على العقائد والتقاليد التى كانت تتجه لغير الله بالضحايا كالتقرب للطواغيت أو لأرواح الموتى^(٢)، أو لأرواح القديسين والأولياء أو التزلف للأرواح الشريرة، وتهديتها حتى لا تصيب الأحياء بأذى أو للكواكب أو قوى الطبيعة.. وما إلى ذلك، وأزال بذلك رواسب الشرك التى كانت يتخبط فيها العالم قبل ظهوره^(٣).

يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾^(٤).

فالله سبحانه يذكر أن الذبائح شعيرة معروفة فى شتى الأمم، لكن الإسلام يوجهها الوجهة الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه.

ذلك لأن الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات، ويتوجه بها كلها إلى الله، ومن ثم

(١) راجع ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٨ - ٩.

(٢) لقد انتشرت عادة التقرب للموتى بالضحايا ابتغاء مرضاتهم وخشية غضبهم على الأحياء عند طائفة كبيرة من الأمم الإنسانية قديمها وحديثها، وبخاصة عند قدماء المصريين ومن الغرب - فيما يقول الدكتور على عبد الواحد وافي - أن آثار هذه العبادة قد ظلت باقية إلى عصرنا الحاضر. فكثير من المصريين عوامهم وخواصهم فى عصرنا الحاضر يرى من الضرورى أن تذبح ضحية أو ضحايا من العجول أو الخراف أو كليهما تحت نعش الميت عقب خروجه من منزله إلى حيث يوارى التراب، وهذا أثر من آثار الشرك يتعارض كل التعارض مع مبادئ ديننا الحنيف، ومجانب لقواعد الإسلام وتعاليمه، وراسب من رواسب عبادة الموتى والتقرب لأرواحهم.

(راجع غرائب النظم ص ٧٩ - ٨٠ بحوث فى الإسلام والاجتماع ص ١٣٢).

(٣) بحوث فى الإسلام والاجتماع ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) الحج: ٣٤.

يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة، والحركة والعادة، إلى تلك الوجهة الواحدة، وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة.

ومن هذا المنطلق حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به، وحتم ذكر اسم الله عليها حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز، وكأنها تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله^(١).

وجاء في تفسير المنار أن المراد بها أهل لغير الله به ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيمًا دينيًا، ويتقربون إليها بالذبائح، وكل ما يذبح ويقدم للأصنام أو غيرها مما يعبد، والتحريم في ذلك لسبب ديني محض لحماية التوحيد، لأنه من أعمال الوثنية، فكل من أهل لغير الله على ذبيحة فإنه يتقرب إلى من أهل باسمه تقرب عبادة، وذلك من الإشرار والاعتماد على غير الله تعالى ويدخل فيما أهل لغير الله ما ذكر عند ذبحه اسم نبي من الأنبياء أو ولى من الأولياء^(٢).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٢٤٢٢ - ٢٤٢٣.

(٢) راجع الجزء الثانى ص ٨٠ والجزء السادس ص ١١٣.